

طه حسين والاطروحة الاولى

بغياض الدكتور طه حسين تنطوي مرحلة فكرية وادبية متمييزة الملامح والسمات في تاريخ الثقافة العربية ، ففضلا عما تولى عنه الرواد ابان النهضة الحديثة التي نقلت العالم العربي من جاهلية العصر العثمانية وبقية مظاهر التخلف والجمود التي سادتها وغلبت عليها ، الى مجارة الامم الناهضة في الاخذ باسباب العلم والتنوير والتعريب بالنظم الحديثة في مجال الحكم على ما يصحبها من اوجه الخرق والمخالفة والحييدة عن الشرائط الموضوعية والقواعد المسننة ، ومجازة ذلك الى استفلالها وتسخيرها لضمان المنافع والمصالح الشخصية في احيان كثيرة - فضلا عما تولى عنه هؤلاء الرواد من تعريف بانجازات الفكر الاوروبي من ناحية ابتداء مناهج البحث وترسم الموضوعية في الدراسة الادبية وانتهاء الادباء الاوروبيين من كتابة نماذج حية دالة على براعتهم في التخيل والتصوير واجتلاء الحس الانساني العميق ، بالاضافة الى احيائهم لتراث ، للنماذج الرائعة المضيئة منه ، والتفرغ لدراستها واخضاعها لمدارس النقد الحديث ، المجانية للتعصب والانحياز وتقليب اليسول الذاتية في اطلاق الاحكام ، فانهم اعتدوا الميراث الادبي امرا مشابها للحرفة يعول عليها في التحصيل والكسب ، لا هواية يتوسل بها لتزجية الفراغ ومقابلته . ومن هنا كان مصدر الجد والثابرة والاخلاص في نظرهم الى القضايا الفكرية المطروحة للمدرس والمناقشة واخذهم ذاتهم بالثقافة والاطلاع ، وتوقفهم الى انماط واساليب في فن القول والكتابة ، مستوحية لطابع نفوسهم وممثلة لسلاقتهم وخصائصهم الشخصية ، بحيث امكن لك ان تتعرف على كل منهم خلل الاسلوب لو اختبرت في ذلك في حالة حجب الاسم عنك !

بغياض هذا الرائد ينتهي طور التفرد في الاسلوب الكتابي ، ليعم طور اختلاط الاساليب وتمازجها وتهافت اصحابها على النشر ومواصلة الانتاج والدهاس الشهرة السريعة على حساب التفريط بشرائط العمق والموضوعية والتفنن في الصياغة وفق ما تلزم به الحاجة او الجري على تقاليد الادب العربي العريقة في احلال اللفظة محلها وانزالها من قرارها ، بحيث تشاكل ما قبلها وما بعدها . في تادية القصد وتجسيد المعنى ، من غير حذلقة او تفصح . واني لمعترض ان يصحى بسمعته ومكانته فيدل على هذه الظواهر الشائنة او يحذر من مقبتها على مستقبل الثقافة العربية ، فالانتهام بالتخلف ايبين ما يصمه به اصحاب الحق والجمال ، ودعاة التجديد والحداثة ، ان شفقت لهم انتماءاتهم الفكرية والسياسية ، وسمحت لهم بتوهم ذلك !

وما لنا نسرف في امتداح اسلوب طه حسين واستحسان ما ينطبع به من عذوبة الموسيقى وجمال الايقاع والقدرة الفائقة على معاودة صياغة المعنى الواحد بالعبارة المتكررة الجديدة الماينة للسابقة في المفردات والالفاظ ، دون ان يبتعث ذلك في نفوسنا شعورا بالملل والسأم ويدفع بنا الى الانحاء عليه بالتعهد والافتعال والقصد قبل ان نقر له بالعفوية والانطلاق والترسل بوحى الطبع والسجية ، فقد دلل الكثيرون على ان هذا الاسلوب يمثل نقلة حية في تاريخ البيان العربي ، كان لها اثرها الواضح على كتابات المحدثين الذين ان عجزوا عن محاكاته ومطابقتها في بعض خصائصه ، في حال من استواء التقليد والتخلي عن الاصاله فانهم تعلموا منه مجانية التكلف واستكراه الالفاظ وتصيدها على غرار صنيع ادباء الفترة المظلمة التي انحسرت فيها ظلال الثقافة العربية جراء تسلط الفانحين وغلبتهم علينا بالقهر والعسف . وحسب هذا الاسلوب المفرد ان صار طوع نزوع الاديب الكبير الى تسجيل عصارة تجاربه القاسية مع الناس والحوادث عبر تلك المقالات الفنية الرائعة التي نتلمس بين سطورها بجلاء نبرة الصدق والانفعال والامل ، فقد امتحن الدكتور طه حسين غير مرة بالعداوات والصراعات الفكرية مع مخالفيه في الرأي والعقيدة واعتساد التفسير الملامم المقبول لظواهر الحياة وشؤون الحكم وحقائق الادب . واوسعه الكثيرون تجريحها وايلاما ، وخاب ظنه بالاصدقاء القدامى ممن انحرفت بهم الظروف عن وجهاتهم السابقة ، وانحازوا لارباب السلطة مؤثرين الرغبات والمقاصد التي تحلهم محل البروز والصدارة والاستعلاء ، وتظهرهم بمظهر الصاعد في سلم الحياة ، على الاحتفاظ بمشاعر الود والوفاء ورعاية الصلات القديمة ، وكذا تمثل طويات هؤلاء ودخانهم وما انتهوا عنده من الضعف والتهافت ، فيصور كل ذلك تصورا دقيقا نابضا يقطر بالاسى والمرارة وتشف معه الالفاظ على وجه يحكي المكابدة الواقعية التي ان كانت ثمرتها الاولى مواجهة ما يكره من التمنت والحييف ، والتعلل بان ما يلقي قدر لاذب يحيق باحرار الفكر ، فانها عوضته بهذا العنصر الفريد الذي تلقى عنده جوانب الاسر والروعة والتلقائية والتدفق مما لا يعرفه الكتاب الا اذا كان الاخلاص دليلهم ورائدهم ومصدر الهامهم . ونضيف ان عميد الادب لم يمر خلال سني حياته الادبية بما تعارف مؤرخو الادب والنقاد على تسميته بتطور الكاتب وتحوله من ناحية المواقف والاهتمامات والصياغة العبارية او المستوى الثقافي على وجه ادق جريا مع تعاقب السنوات

وان تصرف عنه الى ما ينفع ويفيد» (٢) .

وإذا علمنا ان هذه العبارة كتبت عام ١٩٢٢ ضمن مقدمة الطبعة الثانية للكتاب ، فحري بنا ان نستقي منها درساً في ادب النفس حيال ما يكتنف حياتنا الادبية قبلاً وبعد من التحيز في اناة البعض وتهمين دورهم مع استبعاد الآخرين وحرمانهم ، بحيث صار لزاماً لبدل على كفايتك ويتداول الباحثون والنقاد نجاح ان ننضم الى شلة وتنخرط في جماعة ، او نصطنع المرئيين من ضعاف النفوس ان كنت على قدر من منانة الشخصية وقوتها .

وثمة ملاحظة اخرى قد يستدل منها على الريادة الفذة لطف حسين في مجالها ، تفيد انه عني بتوضيح معنى الجبر في مذهب ابي العلاء وتحريه عن مصادره ومآتيه وخلص الى القول : « الحياة الاجتماعية هي التي تأخذ اشكالها المختلفة وتنزل منازلها المتباينة بتأثير العزل والاسباب ، ولا نعتقد انفراد الاشخاص بالحوادث ، وانما نعتقد ان الحوادث اثر لطائفة من المؤثرات وعلى هذا لا نستطيع لانفسنا ان تصيف اثراً من الاثار الى شخص من الاشخاص مهما ارتفعت منزلته وعلت مكانته ومهما عظم اثره وجل خطره ، وانما على اثر مادي او معنوي، ظاهرة اجتماعية او كونية ، ينبغي ان ترد الى اصولها وتعاد الى مصادرها ، وان نستنى من ينابيعها ونستخرج من مناجمها » (٣) .

ورغم ان الثقافة العربية جازت مؤخراً هذه النحوي وتخطتها الى نظرية علمية اكثر تحديداً وشمولاً وارتباطاً بالواقع وبعبراً عن صراعاته وتناقضاته وعلاقاته الانتاجية ، فسوف نظل لمقولة الادييب الراحل اهميتها البالغة في تاريخ تلك الفترة من حياة المجتمع العربي ، حيث رجح الناس يومها دزر الفرد في نصريف الشؤون والحوادث ، وغلبوا اثر المصادفات المعارضة على فاعلية القوانين والبواعث الاخرى ، فنبههم الى ان : « حياتهم لا تجري كيفما اتفق ، انما تصرفها العوامل والاسباب ، فلابية الاجتماعية تأثير على حياة الفرد ، وللعادات والاخلاق كذلك » (٤) .

اجل يبقى لذلك الاستقراء الاولي مربية الريادة والكشف والدلالة العميقة ، رغم ما انحنى على صاحبه بعض مرئيين النهج العلمي في مرحلة تالية من ابعاده عن « قراءة الاصول العلمية للمشكلات الانسانية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية او عن تعمق هذه الاصول التي يقوم عليها هذا الانقسام الكبير العميق بين عالمي الارض » (٥) .

وليس لنا ان نحمل هذا الرائد اكثر مما في وسعه وامكانه ، بل يحسن بنا ان نسمح من هذه الناحية ، وشافعه انه كان من كتاب المواقف وانه لا يعدم انتفاضه المتكررة على الظلم والظالمين ، ومناصرته للمحرومين والمضطهدين ومناواته للسف والظلمين ، عبر سنني حياته الممتدة استاذاً جامعياً او عاملاً في الصحافة .

العراق - الحلة

(٢) المرجع السابق ط ٦ ص ٤

(٣) المرجع السابق ط ٦ ص ١٩

(٤) المرجع السابق ط ٦ ص ٢٦٤ بتلخيص

(٥) مجلة الاداب ، العدد الاول ، السنة الاولى ٩٥٣ م ، مقالة للاستاذ حسين مروة حول كتاب (بين بين) .

وتعد المطالعات ، فقد تبدى هذا الرائد عبر مؤلفاته جميعاً ، بدءاً من اولياتها وانتهاء بالآخرات ، اديباً متهرباً بنون الصياغة ، مستوفياً في دراساته ومباحثه للفظان والمراجع . عارفاً بطريقة استخدامهما في استقراء الحقائق وتخرج المسلمان ، مستكملاً لما يلزم الادييب الحر من الجرأة ومعارضة المؤلف السائد من القيم والمواضع الاجتماعية والاراء الادبية ، ان وجد فيها ما يجافي الحق او يباين الصواب !. ان طه حسين في المرحلة البدوة ، ومن ناحية النضج الادبي والمستوى الفكري والقدرة على التعبير الوقور الرصين الذي ما نجتلي فيه تكلفاً او تعاملاً او صناعة فجة ، هو عينه في المرحلة المتأخرة يوم حظي بالتكريم والتقدير وورشج لنيل الجوائز العالمية .

لكتاب (تجديد ذكرى ابي العلاء) دلالة عظيمة في تاريخنا الثقافي ، لانه اول رسالة قدمت الى الجامعة المصرية في بداية تأسيسها لينال صاحبها شهادة العالمية ولقب الدكتوراه في الاداب ، وانه اول اثر فكري اعتمد في اعداده على منهج البحث القائم على التحليل والتفسير والرجوع الى المظان والمصادر ، بل يكتسب اهميته من انه امر بدع يدعو الى الانهاس والاعجاب بممكنات ابن الخامسة والعشرين دال بجودة تأليفه واحكام خطته وتوفره على الدقة والتثبت والموضوعية في تسجيل ارائه وخواطره ومقولاته حول ادب المصري وفلسفته وعلاقته بعصره وموقفه من الحوادث الاجتماعية والسياسية المستجدة يومذاك ، على مقدار الجهد والنصب والعناء ، مما خبره والفه طويلاً ، وخلص منه الى شحنة موهبته واستيفاء ادائه الفنية والفوقية . وقد نتعلم منه اشيء كثيرة عن تواضع العلماء وبساطة المفكرين وسذاجة العظماء ، وابتعادهم عن التعالم والفردور . ففي المقدمة التي كتبها طه حسين عام ١٩٥١ لطبعته السادسة ينص بالحرف الواحد : « لم اعتمد ان يكون الكتاب موفق العبارة ولا رشيق اللفظ ، لاني لم ارد به اظهار التفوق والنبوغ في فن الانشاء ، وانما اردت ان اصور رجلاً من رجال التاريخ » (١) . بينما الحال ينبغي انه بقدر احتفال الكتاب بالحقائق والوفائات والاحبار ، واحتفائه بالتعليق والتفسير وحسن استخدامه للمناطق وما يلزم به من الاناة والروية قبل التعجل والمجازفة في عرض الاراء والاحكام ، فقد تاتي لكاتبه ان يتأق في بيانه ويسمو في عبارته ويستوي على الامد في روعة الاسلوب مما ساعد على جلاء الحقائق ووضوحها اكثر فاكثر !.

ويكتسب الكتاب دلالة كذلك من انه قوبل غداة نشره بطبعته الاولى اiban سني الحرب العظمى ، بمعارضة السلميين والجامدين ورفضهم لطريقة تأليفه واتهامهم الكاتب بالافتئات والارجاف على ابي العلاء وتممه التشكيك في عقيدته ، فهو من هذه الناحية يؤرخ لحركة النقد عندنا وما يتفشى فيها عادة من تحكيم الاهواء وتقليب المنازع الذاتية وتجريد المرء من حربة الفكر والرأي والامعان في شتمه وتلبه ، باسم المحافظة على التقاليد والقيم الدينية والاجتماعية وصونها من التصدع والانهيار ، بينما لا تخفي الوقائع المنظورة ما يكمن وراء ذلك من الحسد والغيرة والحقد وكراهة التميز ، وغير هذه الادواء الخبيثة التي تسري في نفوس بعض من ينصبون صدورهم سدنة للاخلاق وحصنة للتراث ، وحسبنا ان نعتل بقولة طه حسين : « اما الذي يفضك ويجحد عليك فيتخذ النقد سبيلاً الى ايدائك والنيل منك ، فخليق بك ان تتركه وشانه

(١) تجديد ذكرى ابي العلاء ص ١٤